

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ 1442/7/7 هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الدُّرِّيَّةَ الصَّالِحَةَ نِعْمَةٌ مِّن نِّعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَهَبَةٌ يَهَبُهَا لِمَن يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، تَأْنَسُ بِهَا النُّفُوسُ مِنَ الْوَحْشَةِ، وَتَقْوَى بِهِمْ عِنْدَ الْوَحْدَةِ، وَتَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهِيَ مَطْلَبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَقَدْ طَلَبَهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ١٠١، وَطَلَبَهَا زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ٣٨ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ٣٩.

وَطَلَبَهَا عِبَادُ الرَّحْمَنِ فَقَالُوا: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ٧٤.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْأَبْنَاءُ هَبَةٌ مِّنَ اللَّهِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ ٥٠.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَالِكُهُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ يُعْطِي مَن يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَن يَشَاءُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا ﴾ أَي: يَرْزُقُهُ الْبَنَاتِ فَقَط. قَالَ الْبَغَوِيُّ: وَمِنْهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴾ أَي: يَرْزُقُهُ الْبَنِينَ فَقَط. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَابِرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُوَلِّدْ لَهُ أَنْثَى.

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ﴾ أَي: وَيُعْطِي مَن يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، أَي: مِنْ هَذَا وَهَذَا.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَمُحَمَّدٍ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أَي: لَا يُوَلِّدُ لَهُ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَيْحَيِّ وَعَيْسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. فَجَعَلَ النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، مِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ الْبَنَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ الْبَنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ مِنَ النَّوْعَيْنِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ هَذَا وَهَذَا، فَيَجْعَلُهُ عَقِيمًا لَا نَسْلَ لَهُ وَلَا يُوَلِّدُ لَهُ.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَي: بِمَنْ يَسْتَحِقُّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ، ﴿قَدِيرٌ﴾ أَي: عَلَى مَنْ يَشَاءُ، مِنْ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ.

وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ عَيْسَى: ﴿وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أَي: دَلَالَةً لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، حَيْثُ خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، فَادَمٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ، لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أَنْثَى، وَحَوَاءُ مَخْلُوقَةٌ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أَنْثَى، وَسَائِرُ الْخَلْقِ سِوَى عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَى، وَعَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، فَتَمَّتِ الدَّلَالَةُ بِخَلْقِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، فَهَذَا الْمَقَامُ فِي الْآبَاءِ، وَالْمَقَامُ الْأَوَّلُ فِي الْأَبْنَاءِ، وَكُلُّ مِنْهُمَا أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ، فَسُبْحَانَ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ.

عِبَادَ اللَّهِ: الْوَلَدُ الصَّالِحُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِوَالِدَيْهِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ التَّبَتُّلِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ? قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ

آخِرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخِرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوِّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ، عَنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَثْمَانَ بْنِ مَظْعُونِ التَّبْتَلِيِّ، وَلَوْ أَدِنَ لَهُ لَأَخْتَصَيْنَا».

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ صَحِيحَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، بَعْضُهَا يُفِيدُ جَوَازَ الْعَزْلِ، وَبَعْضُهَا يُفِيدُ الْمَنْعِ. فَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الْعَزْلِ، مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، عَنِ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا نَعَزِلُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ».

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنِ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ لِي جَارِيَةً، هِيَ خَادِمُنَا وَسَانِينُنَا [أَي: الَّتِي تَسْقِي لَنَا]، وَأَنَا أَطُوفُ عَلَيْهَا، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَحْمِلَ، فَقَالَ: «اعْزِلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ، فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قَدَّرَ لَهَا»، فَلَيْتَ الرَّجُلُ، ثُمَّ أَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ الْجَارِيَةَ قَدْ حَمَلَتْ، فَقَالَ: «قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قَدَّرَ لَهَا».

وَأَمَّا مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ، فَمِنْهُ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ، عَنِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَصَبْنَا سَبَايَا، فَكُنَّا نَعَزِلُ، ثُمَّ سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ ذَلِكَ، فَقَالَ لَنَا: «وَأَنْتُمْ لَتَفْعَلُونَ؟ وَأَنْتُمْ لَتَفْعَلُونَ؟ وَأَنْتُمْ لَتَفْعَلُونَ؟ مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَانَتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا هِيَ كَانَتْ».

وَمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ الْعَزْلُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكُمْ؟» قَالُوا: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الْمَرْأَةُ تُرْضِعُ، فَيُصِيبُ مِنْهَا، وَيَكْرَهُ أَنْ تَحْمِلَ مِنْهُ، وَالرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الْأَمَةُ فَيُصِيبُ مِنْهَا، وَيَكْرَهُ أَنْ تَحْمِلَ مِنْهُ، قَالَ: «فَلَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا ذَاكُمْ، فَإِنَّمَا هُوَ الْقَدَرُ».

قَالَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «سُنَنِهِ»: وَقَدْ كَرِهَ الْعَزْلَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ.

وَقَدْ جَمَعَ الْحَافِظُ أَبُو زَكَرِيَّا التَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ، فَقَالَ فِي «الْمِنْهَاجِ»: يُجْمَعُ بَيْنَهَا بِأَنَّ مَا وَرَدَ فِي النَّهْيِ مَحْمُولٌ عَلَى كَرَاهَةِ التَّنْزِيهِ، وَمَا وَرَدَ فِي الْإِذْنِ فِي ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُحَارِبُ الشَّهَوَاتِ وَالْغَرَائِزَ، وَلَكِنَّهُ يَهْدِيهَا فِي أُطُرٍ شَرْعِيَّةٍ، فَقَدْ حَرَّمَ الْإِسْلَامُ الزَّانِيَ، وَأَبَاحَ الزَّوَّاجَ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ».

لَقَدْ عَالَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ ذَلِكَ الشَّابُّ الَّذِي جَاءَهُ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الزَّانِي، أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ: إِنَّ فَتَى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزَّانِي، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ! مَهْ! فَقَالَ: «اِذْنُهُ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا». قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمَّكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِابْنَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ». فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ

ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.